الزمان والفضاء في "كتاب الرمل" لبورخيس

The time and the space in "The book of sand "by Borges

الجيلالي الغَرَّابي

ثانوية محمد السادس التأهيلية_وجدة/المغرب

abouwael01@hotmail.fr

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-07-09	2018-08-17	2019-01-18

الملخص

إن العناصر المكونة لعلم السرد أربعة، هي الشخصيات والزمان والفضاء أو المكان والوظيفة السردية، ويعتبر الزمان والفضاء أبرزها... لقد خصصت هاته الدراسةَ لمكوني الزمان والفضاء في "كتاب الرمل" للأديب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس، فافتتحتها بتمهيد بينت فيه أهمية الزمان والفضاء بصفة عامة، وقسمتها إلى عنصرين اثنين، تناولت في العنصر الأول توظيف الزمان في "كتاب الرمل"، وعالجت في العنصر الثاني دلالاتِ الفضاء في المتن نفسه، وختمتها بخلاصةٍ تركيبية، خلصت فيها إلى أن السارد قد وظف تقنياتٍ زمانيةً متعددةً ونوعين من الفضاء متناقضين متكاملين في الوقت ذاته...

الكلمات المفتاحية: العناصر المكونة للسرد _الاِسترجاع _الاِستباق _الوقفة _التسريع .

Abstract

There are four elements making narration:characters, time, place or space and the narrative function. The time and the space are the most important... I devoted this study to the time and the space in "The book of sand" by the Argentin writer Jorge Luis Borges, I started by an introduction, I showed the importance of time and space in general. I divided it into two elements, I first dealt with the use of time in the "Book of Sand". I have treated as a second element the connotations of space in the same corpus. I arrived to the conclusion that both narrators have used several temporal techniques, and two kinds of contradictory and complementory space...

Keywords : _The constituent elements of narration _The analepsis _The prolepse _The break _The acceleration

تمهيد

يعتبر الزمان مكوناً هاما من مكونات السرد، ويشكل طبيعة العمل، ويحددها، ويؤثر في بقية العناصر الأخرى، وينعكس عليها... ويعد الفضاء من أكثر العناصر المشكلة للسرد أهمية، ويتحدد في العمل من خلال أشكال، ويتخذ معانيَ متعددة، إلى أن يشكل أحيانا سبب كينونته[1]. إن لكل متنٍ علاقةً ما بالفضاء، وحتى عندما يضرب السارد عن الوصف، فإن الفضاء يكون متضمناً في المسرود[2]. ويحتاج أي سارد إلى مكان، يمتد تأثيره إلى أن يحتويَ العناصرَ الداخلةَ في تشكيل السرد جميعَها...

أولا:ـ الزمان في "كتاب الرمل"

لقد استعمل الأديب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس•(*) في مجموعته القصصية "كتاب الرمل"[3]-(•) مؤشراتٍ زمانيةً متنوعة، منها في شباط 1969م، وبعد انقضاء سنوات، وحوالي العاشرة صباحا، وقبل ألف عام، وفي عصر اليوم السابق، وفي ذلك الصباح، ومنذ زمن بعيد، ومنذ سنوات عديدة، ومنذ عام 1914م، ودام سبعين سنة، ومنذ ثلاثين سنة، وقبل نهايتها ببضعة أيام، وأمس، وفي حوالي عام 1946م، وفي عام 1955م، وفي القرن الماضي، ومنذ الطفولة، وبعد سنين، وعام 1918م، والليلة، وفي اليوم التالي، وقبل فترة وجيزة، وليلة واحدة وصباح واحد، وفي نفس ذلك المساء، وأيام شبابي الأولى، وخلال بضعة أيام، والصباحات، وفي 1899م، ومنذ عدة أيام، وفي السابع من شباط 1904م، وذات ليلة، وبعد عدة أسابيع، والتاسعة أو العاشرة مساء، وكل سبت، وشهر كامل أو شهران، وفي أواخر عام 1914م، وبعد نصف قرن، وبعد حوالي أربع سنوات، وقبل عدة ليال، وبعد عدة أيام، والليل، وفي اليوم الثاني، وبعد الفطور، وليلة السبت، وفي صباح الآحاد، وفي إحدى الليالي، وفي عصر أو ليلة أو في أي وقت آخر، ومع برودة الفجر، وفي تلك الأيام، والقرن الثامن عشر الميلادي، وفي كانون الثاني 1902م، وفي الشتاء الماضي، ويوم الخميس، وذلك اليوم واليوم الذي بعده، وفي وقت مبكر من تموز قضى أسبوعا، وأيام قليلة، وفي تلك الجمعة، وفي أول العصر، وفي هذه الليلة الأخيرة، وحتى مطلع الفجر، وقبل أول ضياء النهار، وفي العام الذي قبله، وفي ظهيرة متأخرة، وفي 1921م، ولمدة أسبوعين كاملين، وفي ذلك الشتاء، وبعد برهة، وفي هذه الليلة الأخيرة، وتلك الليلة الطويلة الممتعة، ووقت الغروب تقريبا، وحوالي الفجر، وحتى التاسع عشر من كانون الثاني، وحوالي الساعة الحادية عشرة، والساعة الثانية، والقرن الرابع الميلادي، وثلاث وثلاثون سنة، وليلة الثلاثين من نيسان 1874م، وفي سن الثالثة عشر، وذات جمعة، ويوم السبت بعد العشاء،

عند الساعة السابعة والنصف تقريبا، وموسم الضباب، والصيف، ومع انبلاج الفجر، وفي غضون ساعات قليلة، وفي ليلة واحدة، وسنة كاملة، وفي القرن الحادي عشر، وفي تسعة أيام بلياليها، وعدة شتاءات، والماضي، والحاضر، وعام 1897م، والمستقبل، وعام 1518م، وبعد ساعات، وبعد آلاف من السنوات، وقبل فترة وجيزة، وعند نهاية 1961م، وفي عام 1970م، وقبل سنة، وسنة 1954م، وبعد ذلك بعدة أيام، ومساء يوم رحيله، وعند نهاية 1964م، وفي مطلع القرن العاشر الميلادي، وذات مساء قبل فترة طويلة، وفي هذه الأيام، وقبل عدة شهور، والقرن التاسع عشر الميلادي، وفي غضون أيام قليلة، وبعد دقيقة أو دقيقتين، وفي الثالثة أو الرابعة صباحا، وفي الليل، أثناء فواصل النوم الضئيلة...

أ_سير الزمان

عرفت أحداث "كتاب الرمل" عمومًا سيرًا زمانيًّا تصاعديًّا عموديًّا، وعرفت تسلسلاً وترتيباً واضحين. إذ كانت وقائعها تتحرك، وتتنامى، وتتناسل باستمرار، لأن الزمان لا يتراجع، ولا يتوقف، بل يشق طريقه إلى الأمام، ويسير في اتجاه نهايته دائما... رُغم ما قيل عن سيطرة الترتيب الزماني، وغلبة التسلسل الحدثي، فإن الروائي استعمل تقنياتٍ كسرت سير الزمان العادي، منها:

1_الاِسترجاع

إن الاِسترجاعَ تقنيةٌ سرديةٌ موجودةٌ في السردين الكلاسِيّ والحديث، وسمي استرجاعًا لأن السارد يتذكر أحداثًا سبقت، أو يسترجع أوصافًا سلفت، فيعود بالقارىء إلى الماضي لإنارة الحاضر... يعين على تلوين سطح الحكي وتوقيف تدفق الزمن والاِبتعاد عن التعجيل بوضع حد لخطاب المتن، ويطلق عليه أيضا التذكر والعودة إلى الوراء.

ضم "كتاب الرمل" اِسترجاعاتٍ، منها أن السارد خورخي لويس بورخيس الرجل السبعيني كان ذات صباح جالسًا فوق أحد المقاعد المشرفة على نهر تشارلز هادئًا مطمئنًّا، فقعد خورخي لويس بورخيس الشاب العشريني بجانبه على حافة المقعد الأخرى، وبدأ يصفر، فأزعجه، ورجع به إلى الوراء. يقول: "ثم شرع الرجل الآخر بالصفير، وكان ذلك إيذانا بأول الأشياء المزعجة في ذلك الصباح (...).

أعادني لحنه إلى فناء دار معينة في بوينس أيرس اختفت منذ زمن بعيد، وأيقظ في ذهني ذكرى ابن عمي ألفارو ميليان لافينيور الذي قضى منذ سنوات عديدة. ثم أخذنا بأطراف الأحاديث. لم يكن الصوت صوت ألفارو، بل تقليدا له. ما إن تبينته حتى انتابني الفزع".[4]

يعكس هذا الاسترجاع حنينَ بورخيس الرجل حنيناً شديداً إلى دارهم التي درست، وعفا عنها الزمان بمدينة بوينس أيرس، ويبرز تذكره ابنَ عمه ألفارو ميليان لافينيور المتوفى قبل أعوام خلت، ويصور غربتَه الحادةَ في مدينة كامبرج وهو في السبعين من عمره، ووقعَ عزلته على نفسيته...

ومنها أن السارد الأستاذ خافير أوتالودا أحب الفتاة النرويجية أولريكا، وقبلها في فمها وعينيها، فسحبت نفسها بلطف وثبات، وطلبت منه بأن لا يلمسها، وأخبرته بأنها ستكون له في نزل ثورغيت، فأذعن لطلبها... حينذاك، تذكر أيام شبابه الأولى مع فتاة من تكساس أنكرت تعلقها به، فقال:

"أدركت أن شيئا غير متوقع لم يكن محرما علي، فقبلتها في الفم والعينين. سحبت نفسها بثبات ولكن بلطف، وقالت:"سأكون لك في نزل ثورغيت. وحتى ذلك الحين، أرجو منك أن لا تلمسني، فذلك أفضل."

قبلت، فالحب بالنسبة لأعزب بقي وحيدا طوال سنوات هبة غير متوقعة من السماء، وللمعجزة الحق في فرض شروطها. عدت بأفكاري إلى أيام شبابي الأولى في بوبايان وإلى فتاة في تكساس هيفاء وجميلة جمال أولريكا وهيفها، كانت مرة قد أنكرت حبها لي."[5]

يظهر هذا الاسترجاع معاناةَ خافير أوتالودا من الوحدة ومطاردة شبح العزوبة إياه، ووقوعَه في حب فتاة جميلة خالها ستؤنسه، لكنها تمنعت، وأبت مبادلته الحب، فاستعاد مغامرة له سابقة، عاشها مع فتاة مماثلة من تكساس، رفضت الإقرار بتعلقها به...

2_الاِستباق

الاِستباق مقطع سردي يسرد أحداثًا سابقةً عن أوانها، أو يتوقع حدوثها[6]. يمثل عكس الاِسترجاع، ويسمى القفزة إلى الأمام كذلك.

شمل "كتاب الرمل" استباقًا واحدًا فقط، إذْ كان السارد خافير أوتالودا مع جماعة من زملائه، وأدارت الشابة النرويجية ظهرها لهم، وعرض عليها أحدهم شرابا، فلم تقبله، وامتنعت عن تناوله مدعية أنها لا تميل إلى تقليد الرجال، وأنها تكره كحولهم وتبغهم، وحاولت أن تكون ملاحظتها ذكية، لكنه (أي السارد) استبق الأحداث، وأخبرنا بأن ما قالته لم يكن من صفاتها الشخصية، فقال:

"ولكنني اكتشفت فيما بعد أنها ليست إحدى صفاتها الشخصية، فما نقوله لا يشبهنا بالضرورة."[7]

وبالفعل، فقد دعته إلى طاولتها، وتجاذبا أطراف الحديث، وتجولا معا في الغابة فوق الثلج، وقصدا نزل ثورغيت، وولجت الغرفة المظلمة واطئة السقف، وأزالت ما عليها من ثياب، ودعته إليها، فاستجاب لها...

3_الوقفة

تدعى الوقفة البطءَ والتبطيءَ والتعطيلَ أيضا، وهي تقنية يلجأ إليها السارد بغية توقيف الحكي وتعطيله. أهم ما جسد ذلك:

3_1_الوصف

إن الوصف "هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات"[8]، وأحسنه "ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع"[9]... لقد سيطر الوصف على المتن سيطرة ملحوظة، وغطى مساحةً مهمةً منه، خاصة حين تعلق الأمر باستجلاء ملامح الشخصيات وتصوير الطبيعة ووصف الأمكنة. من ذلك قول السارد مثلا:

"(...). ثمة بيت شعر لبليك يتحدث فيه عن فتيات مجبولات من لجين معتدل، أو ذهب غاضب. أما أولريكا فقد كانت الذهب والاعتدال معا. كانت هيفاء طويلة، بملامح حادة، وعيون رمادية. لقد أسرني وجهها أكثر مما أسرتني هيئتها الموحية بسر هادىء. كانت تبتسم بيسر، وبدت ابتسامتها تبعدها عن الآخرين. وكانت تتشح بالسواد، وهو لبس غريب على أهل الشمال الذين يحاولون أن يفعموا ألوان البيئة المطفأة بألوان حيوية. كانت تتحدث الإنجليزية بطلاقة، محاولة أن تجهر بالراءات بنعومة. لقد اكتشفت هذه الأشياء بالتدريج، إذ لست براصد جيد."[10]

وقوله أيضا:

"تعودت أن أغلق باب كوخي بحجر، حتى لا ينفذ الثلج إلى داخله. ذات مساء قبل فترة طويلة، سمعت وقع خطى حثيثة تدنو، ثم سمعت طرقا. فتحت الباب فدخل علي غريب. كان شيخا كبيرا وطويلا يلتحف بدثار بال. وثمة ندبة تسم وجهه. وبدا كما لو أن سنين عمره أضفت عليه سلطانا بدل الضعف. ولكنني لاحظت أنه لم يكن قادرا على الحراك دون أن يستعين بعكاز."[11]

وقوله كذلك:

"بعد نهاية رحلة نهرية طويلة في الباخرة وطوف خشبي، ألقينا عصا الترحال على ساحل الأورغواي. (...)، وقد بدا الريف لي أوسع وأكثر عزلة من المزرعة الصغيرة التي ولدت فيها.

ما أزال أحمل صورتين من المزرعة، الصورة التي جلبتها معي، والصورة التي رأتها عيناي. عبثا كنت أتخيل وكأنني في حلم، تشكيلة مستحيلة من سهول "سانتافي" المنبسطة ومحطة مياه بوينس أيرس الفكتورية المبهرجة. كانت "كاليدونيا" مبنية من اللبن، وذات سقوف سرجية من القش والممر كان مرصوفا بالطابوق[12] وكأنه مبني لامتحان طاقة الإنسان على الاصطبار والجلد. كان سمك الحيطان بقدر ياردة، والأبواب ضيقة. ولم يفكر أحد بزرع شجرة واحدة. وكانت الشمس ترهق المكان بأشعتها من أول الشروق حتى آخر المغيب. كانت الزرائب من حجر، والماشية كثيرة، هزيلة وذات قرون، وأذيال الخيل تمتد حتى تلامس الأرض. ولأول مرة في حياتي تذوقت طعم اللحم المذبوح حديثا. (...). وبعد عدة أيام قال لي رئيس العمال أنه (كذا)(•) لم يذق طعم الخبز في حياته. سأل أيرالا عن الحمام فدله دون أليخاندرو بإشارة واسعة على البر كله. كانت ليلة مقمرة، وذهبت لأمدد ساقي، وتعجبت أن نعامة كانت تراقب أيرالا.

كان الحر الذي لم يفلح الليل في تبديده شديدا ولا يحتمل، حتى امتدحنا البرد جميعا. وكانت الغرف واطئة السقوف وكثيرة، وخالية من الأثاث في الغالب. وقد أعطينا واحدة بابها إلى الجنوب، وفيها سريران ومزينة مع طشت(•) وإبريق فضيين"...[13]

يسعى الوصف في هذا العمل إلى رسم صورة فنية وجمالية وبلاغية، بغية وضع المتلقي داخل المشهد الذي يصبو الكاتب إلى نقله. وهو لا يقف عند حدود تصوير الأفضية والطبيعة، بل يتجاوزها إلى سبر أغوار الشخصيات، وإجلاء أحاسيسها النفسية، وإظهار بواطنها...

4_التسريع

يمثل التسريع عكس الوقفة، وهو وسيلة يلجأ إليها السارد لتكثيف زمان المسرود والرفع من وتيرة سيره. ظهر جليا في:

4_1_التلخيص

يتم التلخيص حين "تقدم مدة غير محددة من الحكاية ملخصة بشكل توحي معه بالسرعة"[14]، ويعمل على تسريع توالي الأحداث[15]، والقفز على ما هو أقل أهمية داخل المتن[16]، ويسمى الخلاصة والإيجاز والاِختزال.

يتحدث السارد عن استدارة الملك إسيرن هَامًّا بالانصراف، وضرب الحطاب إياه بالفأس على ظهر عنقه، وسقوطه ميتا أرضا، وإنفتاح راحته، وظهور لمعان في الهواء، وإشارة الحطاب إلى مكان القرص بفأسه، وسحبه الملكَ الميت، وإلقائه إياه في النهر الجاري، ورجوعه إلى كوخه، وتفتيشه عن القرص، وعدم عثوره عليه، ومواصلته البحث عنه منذ أعوام كثيرة، يتحدث عن هذا كله في خمسة أسطر فقط، فيقول على لسان الحطاب:

"أدار لي ظهره. كانت ضربة واحدة بالفأس على ظهر عنقه أكثر من كافية لإسقاطه أرضا. وما إن سقط حتى انفتحت راحته فرأيت لمعانا في الهواء. أشرت إلى موضع سقوط القرص بفأسي، وسحبت الرجل الميت إلى النهر الذي كان سريع الجريان. وهناك ألقيته فيه.

حين عدت إلى الكوخ فتشت عن القرص ولكنني لم أجده، ومنذ سنوات عديدة، وأنا ما أزال أبحث عن ذلك القرص."[17]

4_2_الحذف

يقصد بالحذف حذفُ مدة من المحكي والسكوت عنها تماما، و"تخطي مدد زمنية شتى تتلاشى إلى العدم، وتلك هي الحالة القصوى في تسريع الحكاية."[18]

يحدثنا السارد عن شخص اسمه روفينو عرض عليه ذات يوم جمعة أن يزورا المدينة في اليوم الموالي، لينبئنا بعد ذلك مباشرة أنهما قصداها ليلة يوم السبت إثر وقت العشاء، فيقول:

"(...). ذات جمعة اقترح علينا روفينو أن نذهب إلى المدينة في اليوم التالي لنتلهى قليلا (...).

خرجنا يوم السبت بعد العشاء، عند الساعة السابعة والنصف."[19]

ويخبرنا السارد أليخاندرو فيري أنه التقى زميله خوزيه فرناندير أيرالا، وأنه دعاه إلى أن يتعشى معه، لكنه اعتذر له بأنه لا يستطيع التغيب عن اجتماعات المجلس، ثم يحذف مدة عدة أسابيع، ويحدثنا عن دعوته إياه إلى مرافقته إليه، فيقول:

"(...)، إقترحت على أيرالا أن نتعشى معا. فاعتذر قائلا أنه (كذا)(*) لا يستطيع أن يتغيب عن المجلس. (...). وبعد عدة أسابيع دعاني أيرالا للذهاب برفقته."[20]

يلاحظ أن الحذف الأول محدد، وأن مدته معلومة مضبوطة، وأن الحذف الثاني غير محدد، وأن مدته ليست مضبوطة ولا معلومة...

ب_الزمان من منظور الشخصيات

عرض السارد وجْهاتِ نظر أبطاله إلى الزمان تبعا لمشاربهم المختلفة ومعتقداتهم المتعارضة...

1_الزمان عند خورخي لويس بورخيس الرجل

كان يجلس وحيدًا على أحد المقاعد، فيتأمل نهر تشارلز، ويفكر في الزمان السابق، وفي محاضراته مع طلبته... وتجاذب الحديث مع بورخيس الشاب حول أشياءَ عديدةٍ تخص ماضيه وحاضره ومستقبله، وتذكر دار عائلته بمدينة بوينس أيرس بالأرجنتين، وجدَّه وأمه وأباه وأخته نورا وابن عمه ألفارو ميليان لافينيور...

2_الزمان عند خافير أوتالودا وأولريكا

مارس خافير أوتالودا التعليم أستاذًا في جامعة أندز بمدينة بوغوتا العاصمة الكولومبية، ونزل بالنزل الشمالي خارج أسوار مدينة يورك، والتقى في ردهته الصغيرة بالفتاة النرويجية أولريكا، وأعجب بها، وتجولا معا في الغابة فوق الثلج... ثم توجها صوب نزل ثورغيت، وصعدا إلى طابقه الأعلى، وولجا إحدى غرفه...

3_الزمان عند أليخاندرو فيري وخوزيه فرناندير أيرالا

جاء أليخاندرو فيري مدينة بوينس أيرس سنة تسع وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية (1899م)، وهو يوجد الآن في الطابق الأعلى من فندق بشارع سانتياغو ديل أستيرو. بعد عدة أيام، سيطوي عامه الحادي والسبعين أو الثاني والسبعين من عمره، وما يزال وحيدا لم يتزوج بعد، ويدرس اللغة الإنجليزية لثلة من التلاميذ، ويفضل الصباحاتِ، ومراكزَ المدن، والدعة، وصار عضوا في الحزب المحافظ وفي نادٍ للشطرنج...

كان فيري في شبابه مولعًا بالعيش في أحياء الفقراء المكتظة، والتعاسة، ومُشَاهَدَة سحر مَشَاهِد وقت الغروب... ثم انخرط هو وزميله خوزيه فرناندير أيرالا في مجلس العالم، وصارا يحضران اجتماعاتِه كلَّها بانتظام ومسئولية، فأخذ رئيسُه دون أليخاندرو غلينكوي يحترمهما، ويتودد إليهما، ودعاهما لقضاء أيام بمزرعته لا كاليدونيا...

أُرْسِل فيري من قِبَل المجلس مبعوثًا علميا إلى مدينة لندن في شهر كانون الثاني من عام اثنين وتسعمائة وألف ميلادية (1902م)، وقطن بيتًا متواضعًا وراء المتحف البريطاني، وانكب على دراسة اللغات العالمية صباح مساء، وتعرف الفتاة الإنجليزية بياتريس تحت قبة غرفة المطالعة الشاهقة، وعشقا

بعضيهما دون أن يتزوجا... بعد ذلك، عبر المحيطَ الأطلسي في الباخرة قافلا إلى وطنه محملا بالكثير من الانفعالات والذكريات، فوجد صديقه أيرالا في استقباله ذات خميس، وذهبا إلى مستقره القديم بشارع شيلي، وأمضيا ذلك اليوم واليوم الذي بعده معا في الحديث والتجوال، ثم توجها لزيارة رئيس المجلس أول العصر من يوم الجمعة، وسلمه فيري مسودة التقرير الذي أنجزه حول سفره وبحثه... وشاركا في إخراج الكتب وإضرام النار فيها، وتوفي أيرالا سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وألف للميلاد (1913م)...

4_الزمان عند دون أليخاندرو غلينكوي

اِشتغل في الزراعة، ثم أسس مجلس العالم، وغدا رئيسه، وكان يعقد اجتماعاته بمزرعته لا كاليدونيا، وأنفق عليه من ثرْواته الخاصة، فانضبط له أعضاؤه انضباطا سحريا... في صباح يوم كل أحد، كان يزور المزرعة، ويتلو الكتاب المقدس على عماله، ويفك بنفسه الشجاراتِ التي كانت تحدث بينهم، ويدعوهم إلى اللطف والتسامح...

اِكتشف بأن ابن أخته فيرمين أيغورين، الذي أرسله إلى مدينة باريس في بعثة علمية، قد بدد ثروته على البغايا، فأمر بإخراج كتب المجلس كلها من القبو وحرقها، وباع مزرعته وممتلكاته جميعَها، وصعد عربة مكشوفة صحبة بعض الأعضاء، وأصدر أمره إلى الحوذي بأن يتجولَ بهم، ويأخذَهم إلى حيث شاء، وشرع يغني بصوتٍ منخفضٍ أبياتًا من قصيدة للشاعر باتريك سبينز... وتوفي عام أربعة عشر وتسعمائة وألف ميلادية (1914م)، وقبر في مونتفيديو.

5_الزمان عند ملك إيرلندا وشاعر بلاطه

ذكر ملك إيرلندا أنه أبحر في مرحلة شبابه باتجاه الغروب، ومَرَّ بعجائبَ متنوعة، منها أنه شاهد بإحدى الجزر كلابَ صيدٍ فضيةً تنهش خنازيرَ برٍّ ذهبيةً، واكتفى في الجزيرة الثانية بتناول عطر التفاح السحري طعاما، ورأى في الثالثة حيطانا من النار، وفي الرابعة نهراً مقوسَ الشكل معلقاً في كبد السماء، تسبح الزوارق والأسماك في مياهه...

وواجه في كبره النرويجيين في معركة كلونتارف، وانتصر عليهم، وأحس بالزهو وبالفخر، فاستدعى شاعر بلاطه، وطلب منه بأن يخلد هذا العمل العظيم في شعره، وأمهله سنة كاملة، فنظم هذا ثلاثَ قصائدَ في أوقات مختلفة، وألقاها بين يديه، فاستحسنها، وأعجب بها، وأهداه مرآة فضية وقناعا ذهبيا وخنجرا...

غادر الشاعر القصر، وقتل نفسه بالخنجر، وصار الملك شحاذا يطوف في مملكته طولا وعرضا.

6_الزمان عند يودورو أسيفيدو والرجل المستقبلي

يبلغ يودورو أسيفيدو سبعين عاما من عمره، وقد ولد بمدينة بوينس أيرس سنة سبع وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية (1897م)، وهو أستاذ اللغة الإنجليزية والأدب الأمريكي، وكاتب قصص خيالية...

ذات يوم، كان يتجول في السهل المترامي الأطراف بالأرجنتين وهو يردد بيتين شعريين للشاعر إميليو أوريبي، وشرع المطر يهطل، ورأى ضوءاً يصدر من منزل منخفض تحيط به الأشجار، وفتح البابَ الرجلُ المسقبلي، فأثار رعبَه طولُه الفارع...

دخلا غرفةً غريبة، فأخبر الرجلُ أسيفيدو أشياءَ غريبةً جدا سيعرفها العالم مستقبلا، وأعطاه لوحة صغيرة تمثل الغروب، وتنطوي على شيءٍ لامتناهٍ...

7_الزمان عند الحطاب والملك الغريب

وُلِدَ الحطاب بكوخ يقع بجانب الغابة، وأمضى حياته فيه، ومات داخله... أقسم في صغره بأن يستأصل أشجار الغابة، وكان يصطاد السمك في جدول صغير بيديه، ويوصد بابه بالحجر لئلا يتسرب الثلج إليه...

ذات مساء، سمع وقع خطى حثيثة تقترب منه وطَرْقا، ففتح، ودخل عليه الملكُ الغريب، وبات ليلة معه... بزغ النهار، فتركا الكوخ، وأخبر الملكُ الحطابَ بحقيقته، فسيطر الطمع على الحطاب، وقتل الملكَ غدرا، وألقاه في النهر الجاري، ورجع إلى كوخه، وفتش عن القرص الملكي، فلم يعثر له على أثر...

ثانيا:_الفضاء في "كتاب الرمل"

لقد جرت وقائع "كتاب الرمل" في أفضية عامة، هي القارة الأمريكية والقارة الأوروبية والقارة الآسيوية والقارة الإفريقية، وتوزعت مسيراتِها السرديةَ عدةُ أفضية أقل عمومية، أهمها دول إنجلترا وكولومبيا والولايات المتحدة الأمريكية والبيرو والمكسيك وروسيا وفرنسا والنمسا وإيرلندا والبرازيل والأورغواي والأرجنتين والبيرو والدانمارك والهند وبوليفيا والنرويج وإيسلندا والسويد وكندا والكونغو السويسرية... ومدن كاسا كولورادا وكامبرج وبوينس أيرس وجنيف وكاركاس وقرطبة وأنتري ريوس وبوغوتا ويورك وأوسلو ولندن وإدنبرة ومونتفيديو وسانتافي وكاسيلدا وبونتاديل أستي وباريس وأوسطن ولوماس وغلو وميرلو ولوبوس وكاتا مارما وسانتا أيرين وأكسفورد وأوكلاهوما وتكساس

وباهيابلانكا ووسكونسن وبيكانر... وأفضية أخرى خاصة، أبرزها المقعد والنزل والمجلس والمزرعة والمكتبة والفناء والبلاط والكوخ والنهر والمطعم والشارع والكنيسة والغرفة والنافذة والمتحف والسيارة والبحر والماخور والباخرة والغابة والمقصف والبيت والعربة والساحة والمقبرة والسوق والسور والجامعة ومخزن النفايات والمكتب والحديقة والبوابة والطاولة والمطبخ والقرية والريف والمنضدة والسهل والجزيرة...

1_المقعد:_فضاء التأمل والتفكير والتذكر

ذات صباح، جلس خورخي لويس بورخيس الرجلُ السبعيني فوق أحد المقاعد المطلة على نهر تشارلز، وشرع يتأمل المياه الرمادية وهي تدفع الطوف الجليدي، ويفكر في الزمان الماضي، وفي صورة هيراقليطس قبل ألف عام، وفي محاضرته التي ألقاها عصر اليوم السالف، والتي نالت إعجاب طلابه، واستقطبت اهتمامهم...

فجأة، جلس خورخي لويس بورخيس الشابُّ العشريني على جانب المقعد الآخر، وأخذ يصدر صفيرا مزعجا، فتذكر بورخيس الرجل فناء دار معينة في مدينة بوينس أيرس، اِختفت منذ وقت بعيد، وتذكر كذلك ابن عمه ألفارو ميليان لافينيور الذي توفي منذ عدة سنوات...

2_النزل:_فضاء اللقاء والحب والظلمة والرذيلة

اِلتقى الأستاذُ الكولومبي خافير أوتالودا الفتاةَ النرويجيةَ الشابةَ أولريكا في ردهة صغيرة بالنزل الشمالي بمدينة يورك، ثم غادراه، وشرعا يتجولان في الغابة، ويمشيان على الثلج، وأحب كل منهما الآخر...

بعد ذلك، قصدا نزلا آخر، يحمل اسم ثورغيت، وولجا غرفة واطئة السقف مظلمة، وانعكست صورة سريرهما في مرآة معتمة، فخلعت أولريكا ما عليها من ملابس، ودعت خافير إليها، فشعرا بأن الثلج يتساقط بشكل أسرع من ذي قبل، وتوارت المرايا والأثاث، ولم يعد يفصلهما سيف، وتطاير الزمان تطاير الرمال، وتدفق الحب بينهما...

3_المجلس:_فضاء العالمية والسِّرِّية والإيمان والتضحية والاِلتزام والاِنتظام

بذل أعضاء المجلس كل ما في وسعهم، وسعوا جاهدين إلى أن يكون مجلسهم مجلسا عالميا، يضم أطيافا مختلِفة من دول وقارات مختلفة، وكانوا يعقدون اجتماعاتِهم فيه بشكل سري جدا، وآمنوا بمبادئه إيمانا قويا، وضحوا لأجله، وألهبهم الحماس والتحمس، فتخلوا عن مقابلهم المادي منه، والتزموا بقوانينه التزاما أعمى، وانضبطوا لها بانتظام قل نظيره...

4_المزرعة:_فضاء الجلد والهزال والحرارة والعراك والخوف والوحدة

دعا دون أليخاندرو غلينكوي كلا من أليخاندرو فيري وخوزيه فرناندیز أيرالا إلى قضاء أيام في مزرعته لاكاليدونيا، فصورها فيري بأنها كانت مشيدة باللبن، وكانت سقوفها سرجية من القش، وكان ممرها مرصوفا بالطابوق وكأنه بني لاختبار قوة الإنسان على الصبر والتحمل والجلد، ولم تزرع فيها ولو شجرة واحدة، فكانت الشمس بها محرقة من بداية شروقها إلى نهاية غروبها، وكان الحر شديدا لا يحتمل حتى أثناء الليل، ورأى ماشيتها كثيرة منهكة هزيلة في زرائبَ من الحجر...

في إحدى الليالي، نشب عراك في المزرعة بين أحد عمال النهار وأحد المساعدين الاعتياديين، واشتبكا بالسكاكين، فأحس فيري بالوحدة تقرع بابه، وشعر بالعزلة أكثر من المزرعة التي ولد فيها، فاستولى الرعب عليه، وساوره الخوف من أنه لن يرجع إلى بوينس أيرس مدينته...

5_المكتبة:_فضاء الدرس والبحث والفحص والموازنة والإمعان

سافر أليخاندرو فيري إلى مدينة لندن في شهر كانون الثاني من عام اثنين وتسعمائة وألف ميلادية (1902م)، واستقر في بيت متواضع خلف المتحف البريطاني، وانكب على دراسة كافة اللغات في المكتبة صباح مساء، وأخذ يبحث عن لغة جديرة قمينة بأن تكون لغة مجلس العالم، ولم يغفل أية منها، وفحص الإسبرانتو(•) والفولابوك(•)، ووازن بين الحجج المؤازرة لإحياء اللاتينية والمناهضة لها، وأمعن النظر في اللغة التحليلية عند جون ولكنز...

6_الفناء:_فضاء الحرق والتدمير

أمر دون أليخاندرو غلينكوي رئيسُ المجلس بقيةَ أعضائه بأن يخرجوا صناديقَ الكتب جميعَها من القبو، فانصاعوا لأمره، وكوموها في الفناء كوماتٍ يفوق ارتفاعها طول أطول رجل فيهم، ثم أصدر أمره إليهم بأن يشعلوا النار فيها، فأحرقوها، ودمروها عن آخرها...

بدأ اللهب المشتعل يصدر فرقعاته، فاضطروا إلى أن يلتصقوا بالجدار أو إلى أن يدخلوا إلى الغرف تاركين وراءهم العتمةَ والرمادَ المتطاير ورائحةَ الاشتعال في الفناء...

7_ كاسا كولورادا:_فضاء القبح والتنافر والاِنقباض والقذارة

كانت كاسا كولورادا تقع بالقرب من لوماس على أطراف مدينة بوينس أيرس، وقد زارها السارد، ووصفها بأنها تنتصب فوق وهدة من الأرض، وتحدها من جهة الغرب الحقولُ التي لوحتها

أشعة الشمس، ولم تتمكن أشجارُ الأوركادية الموجودة داخل سياجها من تلطيف كثافة هوائها، وكانت سطوح منازلها تتخذ أشكال السروج مكسوةً بالقرميد، مما كان يبعث عن الانقباض والقبح والتنافر...

8_البلاط:_فضاء إلقاء الشعر والإعجاب وتقديم الهدايا

اِنتصر الإيرلنديون على النرويجيين في معركة كلونتارف، فاستدعى ملك إيرلندا شاعره إلى بلاطه، وطلب منه بأن يصوغ هذا الإنجاز العظيم كلاما، فنظم ثلاث قصائدَ في ثلاثة أوقات مختلفة، فأعجب الملك كثيرا بشعره، واستحسنه استحسانا قل مثيله، وأغدق عليه بعطاياه، وكافأه بأن أهداه مرآة فضية وقناعا ذهبيا وخنجرا...

9_الكوخ:_فضاء الولادة والموت والقتل

لقد ولد الحطاب في كوخه الموجود بمحاذاة الغابة الكبيرة الشاسعة، وقضى فيه معظم عمره، ومات فيه... ذات مساء، زاره إسيرن ملك السيكجن، فطمع في قرص ملكه، وضربه بفأسه على ظهر عنقه، فقتله، وسحبه من كوخه، وألقاه في النهر الجاري...

خلاصة تركيبية

على الرُّغْم من وجود تقنيات الاِستباق والاِسترجاع والتعطيل والتسريع، فإن ذلك لم يُخِلَّ بالتسلسل المنطقي العادي للمتن، ولم ينل من غائيته، إذ إن السارد كان يطوي الأيام والشهور والسنوات سعياً وراء وضع نهاية أرادها لشخصياته القطبية. ولقد اتخذ خورخي لويس بورخيس عاملَ الزمان أسلوباً يعالج من خلاله الواقعة الآن، واعتبره دورياًّ إن لم يكن متناهيا، يقول في قصته "كتاب الرمل":

"ولو كان الزمان لا متناهيا، لكنا عند أية نقطة في الزمان."[21]

هذا يعني أنه يتكرر دون الشعور بخلل معين، والدليل على ذلك أن بورخيس الرجلَ السبعينيَّ أو بورخيس سنة تسع وستين وتسعمائة وألف ميلادية (1969م) اِلتقى ببورخيس الشابِّ العشرينيِّ أو بورخيس عام أربعة عشر وتسعمائة وألف للميلاد (1914م)، فيصير هو الشاهدَ على الزمان عوض أن يكون الزمان شاهدا عليه...

وكَرَّر أيضا تقنيةَ التذكر نفسَها في معظم قصصه، فقال في قصته "أولريكا" مثلا:

"وذكرني الخشب الصقيل بعدسة القراءة بالكتاب المقدس."[22]

وقال في قصته "ليلة الهبات: "مع مرور الزمن لم أعد أعرف هل أنني أتذكر رجل تلك الليلة موريرا المجرم أم شخصا آخر اعتدت على رؤيته فيما بعد في سوق المواشي. وإني لأتذكر تلك اللحية السوداء الطويلة الكثة في وجه موريرا، وأتذكر ذلك الوجه المتورد الذي ضربه الجدري (...).

(...). لقد انقضت السنون، ورويت هذه القصة عشرات المرات، ولست أدري ما إذا كنت أتذكرها كما هي أم أنني أتذكر كلماتي فقط"[23]...

كما أنه لجأ إلى صهر الزمان الميت في الزمان الحي، وانتقل من الزمان الضيق المحدد إلى الزمان الأبدي المجرد، ففي قصته "يوتوبيا رجل متعب"[24]، سافر البطل السارد يودورو أسيفيدو من زمانه أو قرنه إلى مئات القرون الضاربة في الزمان المستقبلي، ونقل لنا صورةً عن العالم آنذاك جميلةً مثاليةً مختلفةً تماماً عن عالمه الذي يحيا فيه...

ويلاحظ أن بورخيس قد وظف في متنه نوعين متناقضين متكاملين من الأفضية، فهناك أفضية مفتوحة، توحي بالحياة والحب والإنشراح والسعادة (المقعد والنزل والمجلس والكوخ والمكتبة والبلاط)، وهناك أفضية مغلقة، تنبعث منها رائحة الموت والحزن والكآبة (المجلس والمزرعة والفناء وكاسا كولورادا والكوخ)، ولقد تكاملا في ما بينهما، ليعكسا الصورة ومقابلها، وليدلا على الشيء ونقيضه...

الهوامش

[1] Roland Bourneuf _Real Ouellet:L'univers du roman. 1ére édition, Presse Universitaire de France (P.U.F), Paris_France 1972, page:97.

[2] ميشيل رايمون وآخرون:الفضاء الروائي. ترجمة:عبد الرحيم حزل، تقديم:حسن بحراوي، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء_المغرب 2002م، ص:63.

• خورخي فرانسيسكو إسيدورو لويس بورخيس أسيفيدو/

Jorge Francisco Isidoro Luis Borges Acevedo

أديب أرجنتيني ولد بالعاصمة الأرجنتينية مدينة بوينس أيرس يوم الرابع والعشرين غشت من سنة تسع وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية (24_08_1899م). تنقل بين بعض دول القارة الأوروبية مثل سويسرا وإسبانيا وبريطانيا، وأمريكا الشمالية، ومُنحَ عدة جوائزَ وأوسمة، وعده النقاد من أبرز المؤثرين في أدب أمريكا اللاتينية وأدبائها... خلف كتباً عديدة، منها:_حماس بوينس أيرس _متاهات _تقرير الدكتور برودي _تاريخ عالمي لسوء السمعة _كتاب المخلوقات الوهمية _الألف _كتاب الأحلام _الصانع _وسم السيف _سداسيات بابل _صنعة الشعر _مرآة الحبر _قصص _تسعة

اختبارات دانتية _سبع ليال... وتوفي يومَ الرابعَ عشرَ يونيو من عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف ميلادية (14_06_1986م) بمدينة جنيف، ودفن بمقبرة الملوك فيها...

[3] خورخي لويس بورخيس: كتاب الرمل. ترجمة:سعيد الغانمي. الناشر:دار أزمنة للنشر والتوزيع، الطباعة:شركة الشرق الأوسط للطباعة، الطبعة الأولى:منارات 1990م، الطبعة الثانية:أزمنة_كانون الثاني 1999م، عمان_الأردن.

• عنوان الكتاب باللغة الإنجليزية (The book of sand)، وباللغة الإسبانية (El libro de arena)، وباللغة الفرنسية (*Le* livre de sable)...

[4] خورخي لويس بورخيس: كتاب الرمل. صص:13_14.

[5] المرجع نفسه. صص:23.

[6] Gérard Genette:Figures III. Editions du Seuil, Paris_France 1972, page:82.

[7] خورخي لويس بورخيس: كتاب الرمل. ص:21.

[8] قدامة بن جعفر: نقد الشعر. تحقيق وتعليق:محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، بدون تاريخ، ص:130.

[9] الحسن بن رشيق القيرواني:العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده. حققه، وفصله، وعلق على حواشيه:محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الخامسة، بيروت_لبنان 1401هـ_1981م، الجزء الثاني، ص:294.

[10] خورخي لويس بورخيس: كتاب الرمل. صص:21_22.

[11] المرجع نفسه. ص:79.

[12] الطابوق:أو الطَّابَق أو الطَّابَاق:الآجر الكبير، وهي كلمة فارسية معرَّبة...

• قال... أنه، والصواب:قال... إنه، لأن همزة أن تكسر بعد القول، وحتى، وحيث، وثم، وإذْ، (_قال إن _ حتى إن _حيث إن _ثم إن _إذ إن).

• الطَّشْت:هو إناء نحاسي لغسل الأيدي... يسمى أيضا الطَّسْت بنطق الشين سينا، وجمعه الطُّشُوت والطُّسُوت.

[13] خورخي لويس بورخيس: كتاب الرمل. ص:32.

[14] جيرار جينيت وآخرون:نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير. ترجمة:مصطفى ناجي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، مطبعة منشورات كوثر، الدار البيضاء_المغرب 1989م، ص:126.

[15] Jean Michel Adam:le récit. que sais_je?, 1ère édition, Presse Universitaire de France (P.U.F), Paris_France 1984, page:42.

[16] Roland Bourneuf _Real Ouellet:L'univers du roman. Page:59.

[17] خورخي لويس بورخيس: كتاب الرمل. ص:81.

[18] جان ريكاردو:قضايا الرواية الحديثة. ترجمة وتعليق:صياح الجهيم، وزارة الثقافة، دمشق_سوريا 1977م، ص:254.

[19] خورخي لويس بورخيس: كتاب الرمل. صص:51_52.

• قائلا أنه:الصواب:قائلا إنه...

[20] خورخي لويس بورخيس: كتاب الرمل. ص:27..

• الإسبرانتو/*Esperanto*:لغة عالمية، تعتمد مختلِف اللغات العالمية جذورا لها، وتتميز بسهولة التعلم والبساطة والمنطقية. وضعها الأستاذ لودفيغ أليعزر زامنهوف سنة:1887م، ولم يكتب لها النجاح...

• الفولابوك/*Volapuk*:لغة عالمية، ترتكز على اللغة الإنجليزية في الدرجة الأولى، والألمانية والفرنسية واللاتينية. وضعها الأسقف الكاثوليكي الألماني يوهان مارتن شيلر سنة:1879م، وبوفاته سنة:1912م، تفرق أتباعها...

[21] خورخي لويس بورخيس: كتاب الرمل. ص:85.

[22] المرجع نفسه. ص:24.

[23] نفسه. صص:54_55.

[24] نفسه. صص:67_72.